مُقَدِّمَة

لم يكن نيقولا مكيافيللي مجرد كاتب أو فيلسوف أو صاحب نظرية، بل إنه كان مشتركاً بقوة في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة التي مرت بها مدينة "فلورنسا" في الفترة التي عاش فيها.

ولد نيقولا مكيافيللي عام ١٤٦٩م في أسرة عريقة، وكان "المديشيون" قد أقاموا حكماً استبدادياً، لكنه حافظ على الأنظمة الجمهورية القديمة، في حين سيطروا بشدة على زمام الحكم الحقيقي. ولم تكن أسرة مكيافيللي موالية لأسرة "ميديشي". وكان والد نيقولا مكيافيللي محامياً مشهوراً، وهو من كبار الداعين إلى الجمهورية.

أما عن حياة مكيافيللي كشاب، فإن المتوفر عنها من معلومات قليل جداً. على أنه من المفترض أنه قد تثقف ثقافة أبناء الطبقة المتوسطة المعتادة في عصره. فقرأ في تاريخ الرومان والترجمات اللاتينية لمختلف أمهات الكتب الإغريقية القديمة.

شب مكيافيللي في عهد أمير مديشي أطلق عليه أهل "فلورنسا" اسم "لورنزو العظيم". وقد اعتبر عهده عصراً ذهبياً للنهضة الإيطالية. كان "لورنزو" أديباً وشاعراً مفطوراً، فاهتم بالأدباء والفنانين وأهل العلم. لكنه مات عام ١٤٩٢م، واضطر خلفه "بييرو" إلى الخروج إلى المنفى بعد عامين، بعدما تعرضت المدينة لغزو جديد على يدي "شارل الثامن" ملك فرنسا. وقد ظهر راهب دومنيكاني اسمه "سافونارولا"، وتمكن من إصلاح الجمهورية، ونجح في إقامة حكومة دينية ما لبثت أن انهارت، وأعدم الراهب وأحرقت جثته في عام

١٤٩٨م. وبعد بضعة أشهر انتخب مكيافيللي سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية "فلورنسا" وهي تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية. وقد استمر "مكيافيللي" في الحكم ثلاثة عشر عاماً. ثم حدث ما لم يكن متوقعاً. حيث جاء الجيش الفرنسي مرة أخرى إلى "فلورنسا"، فاضطر أهلها إلى استدعاء أسرة مديشي، وبالتالي خرج "مكيافيللي" منفياً من مدينته.

اعتمد "مكيافيللي" أثناء حياته في منفاه الريفي على دخل بسيط من ممتلكاته التي توجد في بعض الضواحي. وكان يستيقظ مبكراً ويخرج إلى الغابة يتحدث للحطابين ويتبادل معهم الأقاويل والشائعات. ثم يذهب إلى أحد التلال وحيداً، وهناك يقرأ "لدانتي أو شيراك أو تبيولوس أو أفيد". وبعد أن يتناول غداء خفيفاً، يمضي إلى الحانة فيتحدث مع الطحان والقصاب وبعض البناءين، ويقضي معهم طيلة فترة الظهيرة يلعبون الورق والنرد ويتشاجرون على دراهم معدودة.

وعندما يأتي المساء، يعود للمنزل، ويغير ثيابه الريفية التي عادة ما تكون قد أصابتها الأوساخ والقاذورات أثناء جولته. ويرتدي ملابس البلاط والتشريفات لكي يكون في صحبة من أحبهم. ويدخل إلى مكتبته الخاصة. كان يعتبر ذلك هو حياته الفعلية. وكان خلال ذلك الوقت يدون ملاحظات في كتاب صغير أسماه "الأمير".

اعتزم "مكيافيللي" بعد ذلك أن يهدي كتابه "الأمير" إلى أحد أفراد أسرة ميديشي آملاً أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة. وقد كتب بالفعل إهداء عنونه :

من نيقولا مكيافيللي
إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

وهناك شك في أن يكون الكتاب قد قدم فعلاً إلى "لورنزو" قبل وفاته في عام ١٥١٩م. ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب قد وزع بشكل ملحوظ وطبع مرات عديدة، لكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة "مكيافيللي" أي في عام ١٥٣٢.

كُرم مكيافيللي في أواخر حياته بفضل جهود بعض أصدقائه، وذلك بأن أوفد في بعض البعثات غير ذات الشأن الكبير. كما أن الكردينال دي مديشي (الذي أصبح البابا كليمنت فيما بعد) قد أوكل إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا" وخصص له راتباً سنوياً متواضعاً. وفي تلك الأثناء ازدادت مشكلات إيطاليا وتعقد ما تعاني منه من مشاحنات وخصومات. كل ذلك ساعد على مضاعفة شقاء مكيافيللي وتعاسته. فقد بدأ "لوثر" حركة الإصلاح الديني وتنافس "شارل الخامس" إمبراطور ألمانيا مع "فرنسوا الأول" ملك فرنسا من أجل السيطرة على إيطاليا، مما ألحق بروما الكثير من الخراب والتدمير وأدى إلى طرد عائلة مديشي مرة أخرى من فلورنسا.

وقد أعيدت طباعة كتاب "الأمير" عشرين مرة خلال عشرين عامًا. وإذا كان هناك بطل لهذا الكتاب فهو قيصر "بورجيا" الذي يخصص الفصل السابع من الكتاب لسرد أعماله ومآثره وصفاته وللثناء عليه وإطرائه. وقد أخطأ مكيافيللي خطأ كبيراً عندما اختاره بطلاً لكتابه. فقد اقترف هذا البطل جرائم كثيرة ليصل إلى السلطة، كما ارتكب جرائم أخرى بصورة عارضة. وقد ساهم ذلك الاختيار الخاطئ في تعميق اكتساب مكيافيللي للشهرة السيئة بعد وفاته، وعندما نشر الكتاب.

وقد أصبح هذا الكتاب الصغير منذ ظهوره في القرن السادس عشر مثار جدال كبير. كما أصبح مادة ضرورية لدراسة علم السياسة في عصر النهضة. وعلى الرغم من كل ذلك استمر الجدال الحاد ، والخلاف الكبير حول الكتاب. وهو على الرغم من اشتماله على عدد كبير من المبادئ والمفاهيم السياسية الناضجة التي اعتنقها مكيافيللي، إلا أنه لا يشمل كل آرائه السياسية.

ومنذ طهور الكتاب في طبعاته الأولى والخلاف يدور حول ما فيه من مضامين أخلاقية. وقد تطور هذا الخلاف إلى ما هو أبعد من مجرد تناول أغراضه العملية وعلاقته بالمستقبل السياسي لعائلة مديشي. وقد اعتبره علماء الأخلاق وخاصة في بريطانيا وفرنسا كتابًا مناسبًا فقط للطغاة الأشرار.

وكنتيجة لهذه السمعة السيئة التي لحقت بالكتاب، أصبح كتاب "الأمير" معروفاً للقراء الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكثرت الإشارة إليه في الأدب المسرحي في تلك الفقرة. بل إن شخصية مكيافيللي نفسها قد استخدمت في بعض الأعمال المسرحية كشخصية شريرة بما يتناسب مع هذه السمعة.

إلا أن تناول مكيافيللي لتضارب المصالح بين العامة والحكام، كان موفقاً للغاية ويعتبر إنجازاً حقيقياً ، وهذا تضارب يحدث عادة بغض النظر عمن هم أطرافه أو عن الفترة الزمنية التي يحدث فيها هذا التضارب، فالتاريخ يعيد نفسه.

ويعتبر مكيافيللي مسئولاً ولو جزئياً عن الجدل الذي ثار حول كتابه "الأمير" عقب طباعته. فهو لم يحاول تنظيم أفكاره ولا تفسير مصطلحاته

التقليدية. كما أنه أخفق أيضاً في توضيح العلاقة بين الأمير الجديد الذي سيصلح الهيئات الفاسدة وبين النظام الجمهوري الذي كان هو من الدعاة إليه. كما أنه قضى طوال حياته مخلصاً لهذا النظام ومنادياً به ، ومدافعاً عنه.

وعلى كل حال فإن الترجمة التالية للكتاب ستوضح للقارئ كل أفكار مكيافيللي الواردة في هذا الكتاب، وسواء كانت تلك الأفكار أفكارا طيبة أو خبيثة، فذلك واضح وضوح الشمس. ولا يحتاج إلى تعليق في أي موضع من الكتاب. ويمكننا أيضاً الاستفادة مما في الكتاب من خير وإن قل وتواري بين طيات ما هو خبيث. كما يمكننا أيضاً تجنب ما في الكتاب من شر واضح. ويستطيع القارئ بنفسه تكوين فكرة صائبة عن الكتاب وعن مؤلفه. فالمؤلف لم يجهد نفسه بتزيين أفكاره لتبدو طيبة ورائعة من الخارج فقط، وقد ذكر ذلك في الإهداء الذي صدر به كتابه. ولكنه كان مباشرًا وصريحاً في كل ما كتب في هذا الكتاب. وأتمنى للقارئ العربي أن يستمتع بقراءة هذا الكتاب ويقارن ما قرأه فيه بما يحدث في كثير من بقاع الأرض في عالم اليوم.

المترجم